فقال له بسمارك بل نجد انها صحيحة اكثر مما يلزم وهذا سبب اعتراضنا عليها ثم ابان له ان الحكومة لا تسمح الا بنشر ما تريده من الاخبار وانها مستعدة ان تعطية شيئاً عوضاً عما يخسره بالغاء الوكالة من برلين

ومن اعماله المشهورة انهُ التفت الى بلاد ايران فرآها مفعمة بالخيرات الطبيعية ولا تحتاج الا الى اناس يستثمرونها فاقنع شاه ايران حتى اعطاه امتيازاً يجعل له شأناً كبيراً في استثمار خيرات البلاد لكن روسيا اعترضت على ذلك واقنعت الشاه حتى سحب الامتياز. الا ان رويتر لم يعدل عن طلبه واخيراً اقنع الشاه حتى اعطاه امتيازاً آخر بدل الامتياز الاول فحوّله الى بنك ايران الشاهاني Imperial Bank of Persia

وبقي الى ان ادركتهُ الوفاة سنة ١٨٩٩ يشارك مديري شركته في توسيع نطاقها وادارة اعمالها. وكان قصير القامة نحيف الجسم مدققاً في اعماله اصيل الرأي حازماً مقداماً لا يكل من الشغل ولا يعبأ بالمشاق وهذا سرُّ نجاحه

السل واستئصاله

مَن طالع المقالات المختلفة التي نشرناها في العام الماضي منقولة عن خطب مشاهير الاطباء التي تليت في مؤتمر السل يظهر له جلياً ان السل من الامراض التي يمكن اتقاؤها ومنع انتشارها . وان خير الوسائل لذلك ان يفهم الجمهور حقيقتهُ وكيفية انتشار عدواه . ومن رأي البعض ان تهتم الحكومات بهذا الامر فتنشر المنشورات والوصايا الصحية بلغة يفهمها العامة وتمنع اختلاط المسلولين بالاصحاء وتمنعهم من البصق في الاماكن العمومية وتضطرهم الى البصق في آنية خاصة فيها مواد سامة تميت ميكروب السل الذي في بصاقهم . ومن رأي غيرهم ان تؤلف لجان لهذا الغرض عينه

لكن الحكومة لا يهتم منها بالمسائل الصحية الا فرع واحد وهو فرع الادارة الصحية . ورجال هذه الادارة لا يفعلون الا حيث يُرسَلون وفعلهم قليل ضيق النطاق لقلة عددهم . واللوائح والمنشورات لا تفي بالغرض كله لانهُ ليس في طاقة كل حكومة ان تسنّ القوانين لتنفيذها وهذا شأن اللجان ايضاً فان فعلها محصور في دوائر ضيقة . ويظهر لنا ان الجرائد السيارة اقدر من غيرها على اذاعة ما يراد اذاعتهُ من الحقائق عن داء السل وكل الادواء المعدية وتعليم الناس طرق اتقائها وهذا ما نفعلهُ دواماً في المقتطف وما نقصدهُ في هذه المقالة

كان السل يعدُّ من الامراض التي لا يمكن ان تُتَّقى ولا يمكن ان تشفى وانهُ ينتقل بالوراثة من الوالدين الى الاولاد . وظلَّ ذلك اعتقاد الجمهور من العامَّة والخاصَّة حتى سنة ١٨٨٢ حين قام الدكتور كوخ واكتشف ميكروب السل ورأى انهُ موجود في كل المسلولين فقال انهُ سبب السل . وهو اجسام صغيرة جدًّا لا ترى بالعين ولكن ترى بالميكرسكوب وهي مستطيلة كما ترى في الشكل الاول تدخل الحويصلات التي يتألف منها الجسم فتموت او تعيش وتتكاثر فتتلفها كما ترى في الشكل الثاني . وهي كثيرة في رئات المسلولين وفي بصاقهم وفي كل الاعضاء المسلولة ويمكن استخراجها منها وتربيتها في المرق او غيره من المواد المغذية والبحث في طبائعها

وهذا الاكتشاف اعظم كل الاكتشافات الطبية لانهُ ازاح الستار عن حقيقة السل واثبت للناس انهُ من الامراض التي يمكن اتقاؤها . وتظهر فائدتهُ من ان سُبْع اهالي اوربا كانوا يموتون بهذا الداء فضلاً عما يقاسونهُ من العذاب قبل موتهم بهِ فاتضح الآن انهُ يمكنهم ان يتقوهُ وان الذين يصابون بهِ يمكنهم ان يشفوا منهُ اذا عالجوهُ قبل ان يتمكن منهم . والسبيل الى ذلك اولاً ان يعرف كل احد من الخاصَّة والعامَّة حقيقة السل وكيفية انتشارهِ ووسائل اتقائهِ وثانياً ان تنشأ المصاح والمستشفيات لعلاج المصابين بهِ

اما من حيث الامر الاول فنقول ان ميكروب السل يدخل الجسم مع الهواء او الطعام ويقيم في الرئتين او العظام او المفاصل او نحو ذلك من اعضاء الجسم ويغتذي من انسجة الجسم التي حولهُ ويتلفها فلا تعود الاعضاء التي يستقرُّ فيها قادرة على القيام بوظائفها فتنحرف الصحة وينالُ الجسم من المواد السامَّة التي تخرج من ميكروب السل وتنتشر فيهِ

فالسل اذاً مرض معدٍ يتَّصل من المصاب بهِ الى السليم بواسطة الميكروب الخاص بهِ . وكل مسلول مركز تنتشر منهُ العدوى الى ما حولهُ ولا سيما الى الذين يخالطونهُ كثيرًا . وعدوى السل اشد من عدوى الطاعون والتيفويد ولكنها لا تظهر في من تصيبهُ سريعاً بل قد يتأخر ظهورها بضعة اشهر فهو مثل الجذام الذي ينتقل بالعدوى ولكنهُ لا يظهر في من يُعدَى بهِ الاَّ بعد سنين كثيرة واكثر ما تنتقل عدوى السل بهِ بصاق المسلولين فان تسعة اعشار المسلولين عدوا بالسل

من بصاق غيرهم . وهذه الحقيقة يجب ان ترسخ في ذهن كل رجل وامرأة وابن وابنة في كل المسكونة . ومتى رسخت في اذهانهم فهم انفسهم يجدون الوسائط اللازمة لاتقاء العمل . وكما سعل المسلول او عطس او تكلم خرج من فمهِ دقائق من البصاق حاوية لميكروب السل فتنتشر في الهواء الذي حولهُ وقد تدخل افواه الذين امامهُ مباشرة اذا تكلَّم معهم او سعل امامهم او عطس في وجوههم

ثم ان نقط البصاق التي تخرج حاوية ميكروب السل تقع على الثياب والاثاث والارض وتجف وتتطاير ميكروباتها في الهواء وتمتزج بالغبار وتعود الى الارض ثم تثار منها حينما تكنس وتنتشر في الهواء ثانية فيتنفسها الناس وتدخل رئاتهم او يبتلعونها معما يبتلعون من الطعام والشراب

ورب معترض يقول ان كان الامر كذلك وجب ان يُعدَّى كل الناس بالسل . والجواب ان ابدان كثيرين من الناس تقاوم هذا الداء وتتغلب عليهِ فلا تعدى بهِ او تعدى بهِ قليلاً ثم تشفى منهُ قبلما يظهر فيها ظهوراً واضحاً ومع ذلك فقد تقدَّم ان سبع اهالي اوربا يموتون بداء السل وفي بعض الاماكن يموت خمس الناس كلهم بهِ وكفى بذلك انتشاراً

ومما يعين ميكروب السل على النمو ويضعف الجسم حتى يصير هذا الميكروب قادراً عليهِ الازدحام والرطوبة والظلمة وفساد الهواء وضعف القوى الحيوية من كثرة الشغل والهم

ومما يعيق ميكروب السل عن النمو ويقوي الجسم حتى يصير هذا الميكروب عاجزاً عنهُ الهواء النقي ونور الشمس الكثير والاعتدال في الاشغال والاعمال وطرق المعيشة فان هذه الوسائل تمنع السل وتشفي الجسم منهُ لانها تميت ميكروبهُ قبل دخوله وتقوي الجسم حتى يتغلَّب عليهِ اذا دخلهُ واذا عُدِمت ضعف الجسم رويداً رويداً ووجد ميكروب السل سبيلاً اليهِ

واذا كان السل يخرج من فم المسلول مع بصاقهِ فالحكمة والحيطة تقتضيان ان لا يُطرَح البصاق في كل مكان . وقد تألفت عصبة في باريس لاغراء الناس بالامتناع عن البصق في الاماكن العمومية وذلك بنشر المنشورات وتعليق الاعلانات التي تبين مضار البصاق . وقرَّرت جمعية الصحة العمومية في برلين ان تسن الحكومة قانوناً تمنع بهِ الناس من البصق في الاماكن العمومية والمركبات . وقرَّرت لجنة مدارس برلين ان توضع المباصق في كل غرف المدارس لكي يبصق الاساتذة والتلامذة فيها واذا كانوا مصابين بالسعال فعليهم ان يحملوا المباصق اينما ساروا ويجب عليهم حينما يسعلون ان يضعوا منديلاً امام افواههم لكي لا يتطاير النفث في الهواء . وعلقت حكومة الدنمارك اعلانات في كل الاماكن العمومية وفي محطات سكك الحديد ومكاتب البوسطة والمراحيض العمومية توضح فيها للجمهور ضرر البصاق

ووضعت الحكومة الاميركية في بوستن غرامة عشرين جنيهاً على من يبصق في مركبات

سكك الحديد والترامواي ونحوها من الاماكن العمومية وانزلت هذا القصاص اولاً برجل من اصحاب الملايين ثم كرر البحث ثانيةً فحكمت عليهِ بالحبس اربعاً وعشرين ساعةً

ومن الوسائل المتَّبعة في مقاومة الامراض المعدية اعلام ادارة الصحة بكل حادثة منها فاذا اصيب احد بالطاعون مثلاً تُعلَم ادارة الصحة بهِ فتنقلهُ الى مستشفى خاص بالامراض المعدية فتعالجهُ فيهِ وتمنع انتشار العدوى منهُ الى غيرهِ . وقد جرى مثل ذلك في امر السل في اميركا وفي بعض البلدان الاوربية . ويقال ان عدد الوفيات بالسل يقل في مدينة نيويورك نحو ثلاثة آلاف كل سنة بهذه الوسيلة

واول ما يُعترَض بهِ على هذه الوسيلة هو نقل المريض من بيتهِ ومن بين اهلهِ وهذا لا يرضاهُ هو ولا يرضى بهِ اهلهُ . ولكن الحكومة لا تنقل الاَّ المسلول الفقير الذي لا يمكن وضعهُ في غرفة خاصَّة في بيتهِ اما المسلول الذي يمكن وضعهُ في غرفة خاصَّة في بيتهِ حتى لا يتعرض اهلهُ للعدوى منهُ والغرفة مناسبة لشفائهِ من حيث نورها وهواؤها فلا داعي لان تتكلف الحكومة نقلهُ الى مستشفاها وهذا يطلَق على السل كما يطلق على غيرهِ من الامراض المعدية

واذا كان المستشفى او المصح في بقعة طيبة الهواء وكان فيهِ التدابير الصحية اللازمة لشفاء هذا الداء وجب على كل مسلول ان يقنع اهلهُ بنقلهِ اليهِ لانهُ يقلل تعبهُ ويقرّب شفاءهُ . وهذا ايضاً من الحقائق التي يجب ان ترسخ في الاذهان لتزول منها خرافة قديمة راسخة فيها وهي ان "المستال" باب القبر

ثم اذا أُعلمت الحكومة لم تكتفِ بنقل المريض الى المستشفى او بوضعهِ في غرفة خاصَّة بهِ في بيتهِ بل هي تطهر غرفتهُ بعد خروجهِ منها تطهيراً كافياً حتى يأمن غيرهُ السكن فيها لان ميكروب السل يلصق بالجدران والاثاث كما ثبت بالامتحان وكما يدل الاختبار من عهد قديم حتى اننا نعرف بيوتاً هُجرت ولم يعد يسكنها ساكن لظهور السل في الذين سكنوها عقباً بعد عقب . وتطهّر ايضاً امتعتهُ كلها او تحرقها حتى لا يبقى سبيل لانتقال ما لصق بها من الميكروبات الى غيرهِ

فاعلام الحكومة امر واجب الاتباع ولا سيما في المدن التي يسكن كثيرون من اهاليها بيوتاً مأجورة او ينزلون في الفنادق (اللوكاندات) فان من يستأجر بيتاً لا يبحث غالباً عمَّن كان ساكناً فيهِ قبلهُ وكذلك من ينزل غرفةً في لوكندة لا يسأل عمَّن كان نازلاً فيها قبلهُ فلا يحل لاصحاب المنازل والفنادق ان يتركوا في بيوتهم ميكروبات داء خبيث مثل داء السل لترمدَّ من ينزل فيها وتفتك بهِ بل يجب عليهم ان يعلموا ادارة الصحة حتى تأتي وتطهر الغرف التي كان فيها المسلولون وتزيل عدوى السل منها

ألا ان الواسطة الكبرى التي يُعتمَد عليها لمقاومة هذا الداء الخبيث هي ان يعلم الجمهور كلهُ الحقائق المتقدمة في هذه المقالة حتى ترسخ في اذهانهم ويصيروا يعرفون من انفسهم كيف يتّقون السل كما يعرفون كيف يتقون النار والافعى وكيف يمنعون جمرة في ايديهم من حرق بيتهم او بيت غيرهم وانتشار هذه المعرفة بين الجمهور لا يتم في سنة ولا سنتين بل لا بدَّ لهُ من سنوات كثيرة. والجرائد السيارة خير واسطة لانتشارها

خرائب الشام

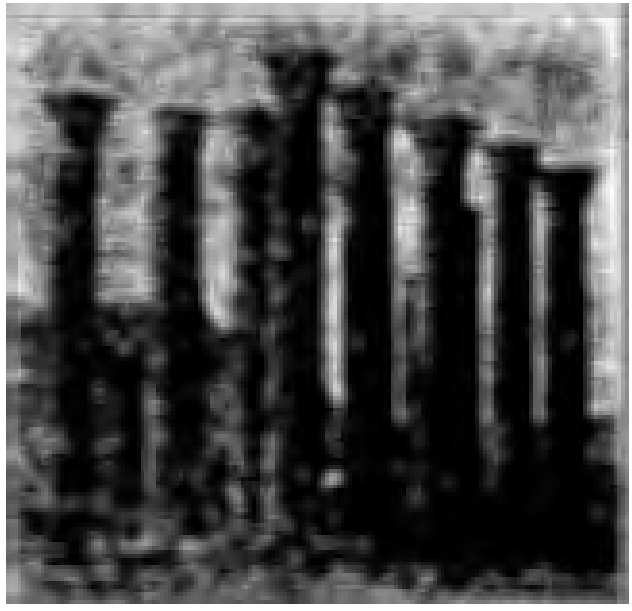

(١) جرش

بعث الينا احد فضلاء دمشق صوراً فوتوغرافية من تصوير سعاد بك مفتش الصحّة في الولاية وكتب الينا معها يقول انها صور بعض الآثار القديمة المبعثرة في بلاد الشام وطلب منا ان نذكر تاريخها او تاريخ المدن التي بقيت منها. فاخترنا الصورة التي صدَّرنا بها هذه المقالة لهذا الجزء وبعثنا بها الى من حفرها حفراً كيماوياً حتى تبقى على رونقها من غير زيادة ولا نقصان

وحسبنا من وصفها ما يرى فيها من الاتساق ودقة الصنعة وانها قاومت الدهر نحو الفي سنة

مرّت بها العواصف وهطلت عليها الامطار وترددت عليها الزلازل وانتابها الحرّ والبرد ولكنها بقيت منتصبةً حيث نصبها بناة سورية الاقدمون تحدّث بمجدهم السالف وتتحسر على ما اصاب بلادهم من غير الدهر ونوائب الايّام

هذه الاعمدة من آثار جرش احدى المدن العشرة (ذكابولس) التي كانت شرقي نهر الاردن وهي بيسان (سكيثوبولس) وجرش (جراسا) وام قيس (جدرا) وخربة السوسية (دبو) وفاهل (بلاّ) وعمان (فيلادلفيا) وقنوات (قناثا) وبيت الرأس (كايتولياس) وادون (ديون) وابل (ابيلا)

وجرش على ٥٥ ميلاً من القدس شمالاً بشرق بين جبال جلعاد على سفحي اكمتين متقابلتين بينهما نهر كروان وهو احد نواصر نهر اليرموق المعروف الآن بالزرقا. ذكرها يوسيفوس المؤرخ وقال ان الملك اسكندر يانيوس قصدها طامعاً بخزائن ثيودوروس فافتتحها عنوةً وكان ذلك سنة ٨٥ قبل الميلاد . ثم دخلها انيوس قائد جيوش اسبسيانوس واستباحها نهباً وتخريباً لكنها بقيت رغماً عن ذلك من المدن الكبيرة وكانت من اغنى مدائن فلسطين في القرن الثاني والثالث فبنى فيها انطونينوس يوس هيكلاً بديعاً للشمس بين سنة ١٣٨ و ١٦١ للميلاد ولا يزال احد عشر عموداً من اعمدة واجبته قائماً وهي المرسومة في صدر هذه المقالة طول العمود منها ٤٥ قدماً او نحو ١٤ متراً وقطره خمس اقدام وكان حول هذا الهيكل ساحة كبيرة يحيط بها صفان من الاعمدة لم يبقَ منها قائماً الاّ عمودان

ثم اخنى الدهر على هذه المدينة فلم تعُد تذكر الاّ نادراً ولعلها خربت بزلزلة قبل الاسلام لان فيها آثار كنيسة كبيرة وليس فيها آثار جامع وبقي امرها ضعيفاً الى زمن الصليبيين فدخلتها جنود الملك بلدوين الثاني سنة ١١٢١ وزاد انحطاطها بعد ذلك فذكرها ياقوت الحموي وقال انها خرائب مهجورة

وآثارها الباقية الى الآن من اعظم آثار المدن الشرقية فلا يزال فيها ٢٣٠ عموداً من العمد القائمة بعضها من الطراز الكورنثي وبعضها من غيره وفيها مشهد بثانية وعشرين صفاً من المقاعد تسع ستة آلاف نفس وهو من اكبر ادلة عظمتها السالفة لان مشهداً يسع ستة آلاف من النفوس يقتضي ان تكون المدينة التي هو فيها مقيمة آهلة بسكانها وهم في رفاهة وبسطة عيش. ومن آثارها ايضاً ستة هياكل كبيرة احدها اعمدة واجبته كورنثية وهو المشار اليه آنفاً وبركة كبيرة كانت تمثّل فيها الحروب البحرية ويؤتى اليها بالماء بقناة كبيرة لا تزال آثارها الى الآن وحمامان وقناطر نصر وارقوة كبيرة وكان القسم الداخلي من المدينة مسوراً بسور عظيم محيطهُ نحو ميلين ولعلهُ كان يحيط بالجانب الحصين منها

والبلاد التي انتجت تلك المدينة وانجبت سكانها لم تزل على حالها ولم يتغير ترابها ولا تغير ماؤها ولا هواؤها . والإحالة على القدر والدهر اسلوب من اساليب التعبير لا يقصد به اظهار حقيقة ولا تقرير حكم وانما الذي خرّب المدينة والبلاد كلها فساد الاحكام فانهُ افسد مصالح العباد واخلاقهم فتولاّهم الضعف ودبّ فيهم الوناء فاصبحوا لا ترى الاّ منازلهم او خرائبها

اليزا اقرت

ايتها النفس الزكية التي غادرت عالم الشقاء . وانتقلت من دار الفناء الى دار البقاء . اوحي اليّ لكي اقوم ببعض الواجب من وصف اخلاقك الراضية . فلقد طالما كنتِ توحين الى بناتك وتبثّين في نفوسهنّ روح القيام بالواجب في السر والعلانية . لُعيت الى بناتك ومريداتك على غير انتظار بعد بُعد الدار وشط المزار

وكنا قُبيْل الموت نستعظمُ النوى فقد صارت الصغرى التي كانت الكُبْرى

فشقّ عليناالنعيُ حتى كاد يشقُّ المرائر وما منّا الاّ كلٌّ باكية ترددّ قول مَن قال

فوا اسفا ان لا اكبَّ مقبلاً لرأسك والصدرَ الذي مُلئا حزما

وان لا ألاقي روحكِ الطيب الذي كأنّ ذكيَّ المسكِ كان لهُ جسما

ولدت فقيدة العلم والادب والفضيلة والمحبة في مدينة ولوبي من ولاية اوهيو باميركا سنة ١٨٤٣ وتعلمت في مدرسة بلدها ثم في مدرسة ليروي الجامعة بنيويورك ونالت الشهادة العلمية سنة ١٨٥٨ وعادت الى مدرسة ولوبي فعلمت فيها اربع سنوات وانتقلت منها الى مدرسة ليروي ثم الى مدرسة كانتون حتى اذا اتقنت فن التعليم وادارة المدارس علمًا وعملاً دُعيت الى سورية سنة ١٨٦٨ لتدير مدرسة البنات الاميركية في بيروت . وكان همُّها الاكبر في اول الامر ان تتعلّم اللغة العربيّة وتبث النظام والتهذيب في المدرسة . وكانت ذكية الفؤاد رخيمة الصوت رقيقة القلب وفورة المجلس فاحبها تلميذاتها واكرمنها وبذلنَ جهدهنّ في طاعتها وارضائها وهي لا ترضى بغير الاجتهاد والتأدب وحسن السلوك ولذلك نجحت المدرسة في عهدها ونبغ منها كثيرات من اللواتي تزدان بهنّ مجالس مصر والشام في هذه الايام زوجات كنّ وامهات او معلمات ومربيات . واللواتي اقمنّ منهنّ في بيروت كنّ ينتظرن زيارتها في بيوتهنّ انتظار العيد ويحببنها حبّ الاخت للاخت ويكرمنها اكرام البنت للام

وكان اسلوبها في التعليم اسلوب المساعدة والترغيب حتى يقبل التلميذات على العلم من انفسهنّ

ويرغبن في الدرس ويستفدن منهُ . ورغَّبت التلميذات في درس العلوم الطبيعية كالطبيعة والفلك والحيوان والنبات مقتصرة على المعارف العامَّة منها . ولها كتاب حسن في علم الفلك النظري وآخر في علم الحساب العقلي وضعتهما كليهما باللغة العربية عدا كتابها في سيرة بولس الرسول

وامتازت بحب التنظيم والترتيب وبتدقيقها في المحافظة على القوانين فكنَّا نرهبها رهبةً شديدة ولا نخالف لها امرًا وهي تبدي لنا الحب والشغف ولكنها لا تتأخر عن قصاص مَن تخالف قوانين المدرسة القصاص المفروض لمخالفتها

وكانت هي نفسها القانون الاكبر والمثال الاوضح للسلوك والترتيب والتهذيب فان حركاتها وسكناتها وكلامها وسكوتها ومشيها وقيامها واكلها وشربها وتنظيم شعرها ولبسها ومقابلتها للناس وترتيب غرفتها وكتبها ومكتبها — كل ذلك كان دروسًا لنا وقدوةً نقتدي بها . ولا انسى سهرها علينا ولا سيما على المريضات منا وترحيبها بتلميذاتها اذا زرنها بعد خروجهنَّ من المدرسة فتضيفهنَّ ويضمنها كاخوات شقيقات وترحب بازواجهنَّ كاخوة واقارب

وعلى وفرة اشغالها كانت تكاتب تلميذاتها البعيدات عنها فتقصُّ عليهنَّ نوادر الاخبار وتسأل عن سلامتهنَّ وسلامة ازواجهنَّ واولادهنَّ وتظهر لاولادهنَّ من المشاشة والحب ما تظهرهُ الجدَّة لاحفادها

ومنذ سبع سنوات استعفت من رئاسة مدرسة بيروت وعادت الى اميركا وآخر كتاب كتبت بهِ اليَّ من هناك وصفت لي فيهِ دار المنقطعين بمدينة شيكاغو وما تجدهُ من السرور في تربيتهم وتهذيبهم فان بعض النساء الغنيات من تلك المدينة انشأنَ هذه الدار للمنقطعين من الصبيان والبنات وانطنَ ادارتها بها

ثم جاءني من رفيقتها في تعليمنا مسز تيلر التي كانت تعلمنا معها باسم مس لورن كتاب بتاريخ ١٧ فبراير تقول فيهِ ما ترجمتهُ " استطيعين ان تتصوري دهشتي وحزني حينما بلغني نعي عزيزتنا مس افرت يوم السبت الماضي (٨ فبراير) مرضت اربعًا وعشرين ساعة بالنزيف الدماغي لم تعِ فيها على شيء ... وقد نعتها اليَّ اختها ... كم من ابنة وامرأة في سورية ومصر يقمنَ الآن ويطوِّبنها . سبعًا وعشرين سنة سعت في خدمة بلادهنَّ جعل الله سعيها مقبولاً لديهِ ونفع بها كل من عرفها "

هذا ما سطرهُ قلمي العاجز ايتها المعلمة الكريمة والصديقة العزيزة من وصف مآثرك. سقى الله ثراك صيب رحمتهِ ونفع بنات المشرق بعلمك وفضائلك وعزَّى ذويك وعزانا جميعًا عن فقدك

ياقوت صروف